

مدونة ياسر عرواني

(1)



طوال عصر التاريخ، حاضرة عريقة متألقة بطبعتها الساحرة وبدائع عمارتها البازخة، ومن يطف بأحياء دمشق القديمة، تُطالعه إلى اليوم تلك المعالم الجميلة الباقية من عهود تاريخية متولدة، وفيها الجامع والمدارس والمكتبات والقصور والبيوت، التي تبقى شواهد على أصالة المبدعين الدمشقيين.

وعبرياتهم الفنية والمعمارية، وهنا نعرض لمجموعة من قصور العهد الأموي بدمشق، ونضيء صفحات من تاريخ المدينة الخالدة.

قصور بني أمية دمشق معلم أثري:

1- قصر معاوية - رضي الله عنه - الخضراء:

استمر اسم الخضراء بُطلق على المحلة التي كان فيها قصر معاوية - رضي الله عنه -، حتى عهد متأخر، وقد سُميّت دار معاوية - رضي الله عنه - بالخضراء لوجود قبة خضراء فيها أطلق المؤرخون أيضًا على قصر معاوية - رضي الله عنه - هذا إسم دار الإمارة، ودار الملك.

وموقع الخضراء معروف على وجه التأكيد وهو إلى الجنوب من الجامع الأموي، محاذياً لجداره الجنوبي، وكان لدار معاوية - رضي الله عنه - باب يصلها بحرم الجامع، حيث محراب الصحابة ومقصورة الخلفاء، وظل هذا الاتصال بين القصر والجامع لما بعد تشييد جامع الوليد.

ثم سُد في عهد متأخر، وكان يُدعى قديماً بباب الخضراء، وهو في الأصل أحد فتحات الباب الثلاثي لمعبد جوبيتز الذي تحول إلى كنيسة في العهد البيزنطي ثم تحول نصفها الغربي إلى مسجد بعد الفتح.

ويبدو أن قصر معاوية-رضي الله عنهـ كان في الأصل بناءً قدّماً جدّده معاوية-رضي الله عنهـ فكان أول قصر عربي يُشاد في دمشق بعد الإسلام، أصابه الخراب في الانقلاب العسكري، ثم احترق في أواخر عهد الفاطميين. وأقدم من يحدثنا عن قصر معاوية-رضي الله عنهـ الحسن المهلي، صاحب كتاب (المسالك والممالك) المتوفى سنة 380هـ-990م، يقول: (وفي ظهر الجامع كانت خضراء معاوية-رضي الله عنهـ وهي داره، وهي الآن مجلس الشرطة ودار الضرب).

وذكره المقدسي وهو جغرافي معاصر للمهلي قال (ومن الخضراء وهي دار السلطان، أبواب إلى المقصورة) والمقصورة المكان الذي يصلّي فيه الخلفاء والأمراء في الجامع الأموي، أمام المنبر والمحراب.

وذكر ابن عساكر "الخضراء" في مواضع عديدة منها قوله (الخضراء من بناء أهل الجاهلية من البناء القديم). ويحدثنا عن قصة بناء الخضراء فيقول: (لما بني معاوية-رضي الله عنهـ الخضراء بدمشق، وهي دار الإمارة، بناها بالطوب، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها، فقال له معاوية-رضي الله عنهـ: كيف ترى هذا البناء؟ قال: أما أعلىه فللعصافير، وأما أسفله فالفار، قال: فنقضها معاوية-رضي الله عنهـ وبينها بالحجارة).

وفي رواية أخرى يقول: (لما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية-رضي الله عنهـ شراء الخضراء، وهي دار الإمارة بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجند من الشام اختارهن..الخ). ويُحدثنا ابن كثير عن دار معاوية-رضي الله عنهـ فيقول: (وقد بني معاوية-رضي الله عنهـ أيام ولاته على الشام دار الإمارة قبل المسجد، وبين فيها قبة خضراء، فعرفت الدار بكمالها بها، وسكنها معاوية-رضي الله عنهـ أربعين سنة).

كما يُحدثنا عن حريق الخضراء مع الجامع الأموي في سنة 1068/461 فيقول: (أُلقيت نار بدار الملك، وهي الخضراء المتاخمة للجامع من جهة القبلة، فاحتراقت وبادت الخضراء فصارت كوماً من تراب بعدها كانت في غاية الإحكام والإتقان وطيب الغناء، ونرفة المجالس وحسن المنظر، فهي إلى يومنا هذا لا يسكنها لرداءة مكانها إلا سفلة الناس وسفاطهم، بعدها كانت دار الخلافة والملك والإمارة، منذ أسسها معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنهـ).

ويبدو مما تقدم أن الخضراء دار معاوية-رضي الله عنهـ أو قصره ظلت من بعده دار الملك والسلطان يتوارثها الأبناء عن الآباء وتنتقل من أسرة إلى أخرى ويقطنها كل من ولـيـ الخلافـةـ منـ بـنـيـ أـمـيـةـ،ـ ثـمـ تـهـمـدـتـ فـيـ سـنـةـ 132/749 خـلـالـ الـانـقلـابـ العـبـاسـيـ،ـ وـيـبـدـوـ أـنـ التـخـرـيبـ الذـيـ أـصـابـهـ عـلـىـ يـدـ العـبـاسـيـنـ لـمـ يـكـبـرـأـ،ـ فـقـدـ اـسـتـمـرـتـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ،ـ وـتـحـولـتـ إـلـىـ مـجـلـسـ لـلـشـرـطـةـ وـدارـ لـضـرـبـ النـقـودـ،ـ إـلـىـ عـامـ 380/990ـ كـمـ قـالـ المـهـلـيـ).

ولكنها زالت من الوجود كلياً في الحريق الذي حدث عام 1068/461 على رأي ابن كثير أو في عام 1065/458 على رأي ابن الجوزي وغيره.

وظل مكانها خراباً إلى أن أقيم على الجانب المحاذي لجدار الجامع الجنوبي سوق جديد للنحاسين (حيث يوجد سوق الخياطين اليوم) شاهده ابن جبير خلال زيارته لدمشق في عام 1184/580.

وُشِيدَ على الجانب الآخر من مكان الخضراء قيسارية سكنها الصياغ، أرَخَ ذلك النعيمي، قال في سنة 1233/631 كملت عمارة القيسارية التي هي قبل النحاسين وحوَّلَ إليها سوق الصاغة واستمر سوق الصاغة في هذه القيسارية وُدُعِي بالصاغة الجديدة من قبل المؤرخين إلى أن احترقت في صيف عام 1960، ولعل المهتمين بالتنقيبات الأثرية يسبرون أرضها قبل بنائها، علّهم يجدون بعض آثار الخضراء، وهو كشف ثمين، إذا اقترنت بالنجاح.

يبدو أن حدود الخضراء، المحلة التي أطلقت على مكان القصر، كانت تمتد إلى ما وراء الصاغة نحو الجنوب لتشمل قصر العظم والزقاق المحاذي له من الجنوب أيضاً، حيث توجد المدرسة التنكزية، فلقد أشار القدماء إلى أن هذه المدرسة بنيت

بالحضراء، ويريدون بذلك المكان الذي كانت تحتله الحضراء، وظلت هذه المنطقة تُعرف بدار معاوية—رضي الله عنه— حتى عهد متأخر، فقد قال البديري في خبر بناء أسعد باشا لقصره سنة 1749/1163 ما يلي: (أخذ أسعد باشا دار معاوية—رضي الله عنه— وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمها وشرع في عمارة دار، السرايا المشهور التي هي قبلى الجامع الأموي).

ويحدثنا المؤرخ ابن كثير نقاًلاً عن ابن عساكر عن دار سليمان بن عبد الملك كانت عند موضأة جيرون الآن (عند باب الجامع الأموي الشرقي)، وأنه بنى داراً كبيراً (قصرًا) مما يلي الباب الصغير (باب في سور المدينة الجنوبي)، موضع درب حرز جعلها دار الإمارة، وعمل فيها قبة صفراء تشبيهاً بالقبة الحضراء (في قصر معاوية—رضي الله عنه—).

2- القصور الأموية الأخرى:

لا يزال أحد أحياء دمشق يحمل اسم قصر الحاج، ويقع إلى الجنوب الشرقي من باب الجابية، وهذا الحي قديم، ذكره ابن عساكر في عداد الأحياء الواقعة خارج سور في عهده، وقال إن القصر يُنسب إلى الحاج بن عبد الملك بن مروان، وكان أميراً على دمشق، ويُقال إن أمه بنت محمد بن يوسف، أخي الحاج الثقفي.

وكانت دار الخليفة عمر بن عبد العزيز والده من قبله إلى جوار الجامع الأموي، حيث أقيمت الخانقاه الشميساطية فيما بعد وهي عند باب الجامع الشمالي (باب الكلاسة أو باب الناطفين) سنة 1061/453 وهي اليوم مدرسة ابتدائية، قال النعيمي: (وكانت هذه الخانقاه دار عبد العزيز بن مروان بن الحكم وابنه عمر، وذلك مكتوب على عتبة الباب إلى اليوم).

وقصر الخليفة هشام بن عبد الملك كان إلى الجنوب من الجامع الأموي، في المنطقة الواقعة داخل سور معبد جوبيرت الخارجي، في السوق المعروف اليوم بسوق القلبيجة، وقد تحول إلى مدرسة في مطلع القرن السادس عرفت بالمدرسة المجاهدية، نسبة إلى واقفها الأمير مجاهد الدين أبي الفوارس بزان أحد مقدمي الجيش في أيام نور الدين، وهي ما تزال باقية إلى اليوم، وقد نقش على ساكن بابها كتابة كوفية تؤرخ بناءها.

ذكر هذا القصر العمري فقال: المدرسة المجاهدية المعروفة بقصر هشام.

ومما يؤسف له أن قصور الأمويين في دمشق لم يبق لها أثر، علمًا بأن عدداً من قصورهم خارج دمشق لا تزال باقية أطلالها ومعالمها إلى اليوم في البارية السورية (قصر الحيرة الغربي والشرقي)، وفي الأردن وفلسطين (قصر المشتى، وقصر عمرة وقصر هشام أو خربة المفجر بالقرب من أريحا، وقصر الطوبة) وقصر في لبنان في موقع عنجر.

شذرات عربية

المصادر: